أُصولُ الطَّريقِ

بسم الله الرّحمن الرّحيم

صلّى اللهُ على سيّدنا محمّد وآله وصحبه وسلَّمَ تسليماً.

قالَ العبدُ المضطَرُّ إلى رحمة ربّه عثمانُ بنُ محمَّد بن عثمانَ الفلانيّ نسباً المالكيّ مذهباً الأشعريّ اعتقاداً:

الحمدُ لله على نعمه السابغة وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلاّ اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لَهُ وأشهدُ أنَّ محمّداً عبدُهُ ورسولُهُ ذو الأوصاف الجميلة الكاملة صلّى اللهُ عليه وعلى آله وصحبه وسلَّمَ تسليماً، ومَنْ ناصرَهُ وأخلصَ لله.

قالَ الشَّيخُ الإمامُ العالمُ العلاّمةُ أبو العبّاسِ أحمدُ بنُ محمّد بن عيسى الشَّهيرُ بزرّوق الفاسيّ رضيَ اللهُ عنهُ ونفعَنا به: هذه أُصولُ الطَّريق، وكلّ من ضيّعها حرَمَهُ اللهُ منَ الوُصول، وهيَ خمسةُ أشياء: تقوى الله في السرّ والعلانيَة، واتّباعُ السُّنَّة في الأقوال والأفعال، والإعراضُ عنِ الخلق في الإقبال والإدبار، والرضى عنِ الله في القليل والكثير، والرُّجوعُ إلى الله في السَّرّاءِ والضَّرّاء.

فتحقيقُ التَّقوى بالورع والاستقامة، وتحقيقُ السُّنَّة بالتحفُّظ وحُسْنِ الخُلُق، وتحقيقُ الرِّضا بالقَناعة والتفويض، وتحقيقُ الرُّجوعِ إلى الله بالحمد والشكرِ في السَّرّاءِ واللّجأ إليه في الضَّرّاء.

وأُصولُ ذلكَ خمسةٌ: «علوّ الهمّة»، و«حفظُ الحُرمة»، و«حُسنُ الخدمة»، و«نُفوذُ العزمة»، و«تعظيمُ النِّعمة»؛ فَمَنْ علتْ همّتُه ارتفعتْ رتبتُهُ، ومَنْ حَفظَ حُرْمَةَ الله حُفظتْ حُرمتُهُ، ومَنْ حَسُنَتْ خدمتُهُ وجبَتْ كرامتُهُ، ومَنْ أنفَذَ عزمَتَهُ دامَتْ هدايَتُهُ، ومَنْ عَظُمَتِ النِّعمةُ في عينَيْهِ شكَرها، ومَنْ شكَرها استوجَبَ المزيدَ عليها من مُنعم بالوعدِ الصَّادق.

وأُصولُ المعاملات خمسةٌ: طلبُ العلمِ للقيامِ بالأمرِ، وصحبةُ المشائخِ والإخوانِ للتبصُّرِ، وتركُ الرُّخصِ والتأويلاتِ للتحفُّظِ، وضبطُ الأوقاتِ بالأورادِ للحُضورِ، واتّهامُ النفسِ للخُروجِ عنِ الهوى والسلامةِ من الغَلَطِ.

وطلبُ العلمِ آفاتُهُ صحبةُ الأحداثِ سنّاً وعقلاً ودِيناً ممّنْ لا يرجعُ إلى أصلٍ ولا قاعدة، وآفةُ الصُّحبةِ الاغترارُ والفضولُ؛ وآفةُ تركِ الرُّخصِ والتأويلاتِ الشَّفَقةُ على النَّفسِ؛ وآفةُ ضبطِ الأوقاتِ اتّساعُ النَّظرِ في العملِ بالفضائلِ؛ وآفةُ اتّهامِ النَّفسِ الأُنسُ بحُسنِ أحوالِها واستقامَتِها، وقدْ قالَ تعالى: ﴿وإن تعدل كلَّ عدلٍ لا يؤخَذ منها﴾، وقدْ قالَ الكريمُ عنِ الكريمِ يوسفَ بنِ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ: ﴿وما أُبرّئُ نفسي إنَّ النفسَ لأمّارةٌ بالسُّوءِ إلاّ ما رحم ربّي﴾.

وأُصولُ ما تُداوَى به عللُ النَّفسِ خمسةُ أشياء: تخفيفُ المعدةِ منَ الطَّعامِ، واللَّجأ إلى الله فيما يَعرِضُ عندَ عُروضِه، والفرارُ من مواقعِ ما يُخشَى وقوعُ الأمرِ المتوقَّعِ فيه، ودوامُ الاستغفارِ مع الصَّلاةِ على رسولِ الله صلّى اللهُ عليهِ [وآلِه] وسلَّمَ في خلوةٍ، وصحبةُ مَن يدلُّ على الله أو على أمرِ الله وهُوَ معدومٌ.

وقدْ قالَ أبو الحسنِ الشاذليّ رضيَ اللهُ عنهُ: أوْصاني حبيبي فقالَ: لا تَنقلْ

قدميكَ إلاّ حيثُ ترجو ثوابَ الله، ولا تجلسْ إلاّ حيثُ تأمَنُ غالباً منْ معصيةِ الله، ولا تصْحَبْ إلاّ مَنْ تستعينُ به على طاعةِ الله، وقَليلٌ ما هُمْ.

وقال رضيَ اللهُ عنهُ: مَنْ دلّكَ على الدُّنيا فقدْ غشّكَ، ومَنْ دلّك على العملِ فقد أتعبَكَ، ومن دلّك على الله فقد نَصَحَكَ.

وقال أيضاً رضيَ اللهُ عنهُ: اجعلِ التَّقوى وطنَكَ، ثمَّ لا يضرّك مدحُ النَّاسِ ما لم ترضَ بالعيبِ وتصرّ على الذنبِ أو تسقطْ منكَ الخشيةُ بالغيب.

قلتُ: وهذه الثلاثةُ هى أصولُ البلايا والآفات، وقدْ قال أحمدُ الزرّوق: رأيتُ فقراءَ أهلِ الزَّمانِ ابتلُوا بخمسةِ أشياءَ: إيثارِ الجهلِ على العلمِ، والاغترارِ بكلّ ناعقٍ، والتهافتِ بالأمورِ، والتعزّزِ بالطريقِ، واستعجالِ الفتحِ دونَ شروطه. وابتُلوا أيضاً بخمسةِ أشياءَ: إيثارِ البدعةِ على السُّنّةِ، واتّباعِ أهلِ الباطلِ دونَ أهلِ الحقِ، والعملِ بالهوى في كلّ أمرٍ أو جُلّ الأمورِ، وطلبِ التُّرهاتِ دونَ الحقائقِ، وظهورِ الدَّعوى دونَ صدقٍ. فظفروا بخمسةٍ أُخَرَ: الوسوسةِ في العباداتِ والاسترسالِ مع العاداتِ والسَّماعِ والاجتماعِ في عمومِ الأوقاتِ، واستمالةِ وجوهِ النَّاسِ بحسبِ الإمكانِ، وصحبةِ أبناءِ الدُّنيا حتّى النِّساءِ والصِّبيانِ. واغترّوا في ذلك بوقائعِ القومِ وذكرِ أحكامِهمْ. ولو تحقّقوا لعلمُوا أنّ الاسترسالَ رُخصةُ الضُّعفاءِ، والمُقامُ بها بقَدْرِ الحاجةِ منْ غيرِ زيادةٍ والعوائدِ دويّةٌ وقيامٌ بحقِّ الخدمةِ فلا يسترسلُ معها إلاّ بعيدٌ منَ الله. وأنّ السَّماعَ رحمةُ المغضوبِ أو الكاملِ وهوَ الانحطاطُ في بساطِ الحقّ إذا كانَ بشرطِه منْ أهلِه ومحلّه وأدبِه.

وأنّ الوسوسةَ بدْعةٌ وأصلُها جهلٌ بالسُّنّةِ أو خَبلٌ في العقلِ، وأنَّ التوجّه لإقبالِ الخلقِ إدبارٌ عنِ الحقّ لاسيّما قارئٌ مُداهنٌ أو جبّارٌ غافلٌ أو صوفيٌّ

جاهلٌ. وأنّ صُحبةَ الأحداث ظُلمةٌ وعـارٌ في الدُّنيا أو الدِّين وقُبولُ إرفاقهم أعظَمُ عَيباً، وقدْ قال سيّدى أبو مَدين رضيَ اللهُ عنهُ: «الحَدَثُ مَن لمْ يوافقكَ على طريقَتكَ ولو كانَ ابنَ سبعينَ سنة».

قلتُ: وهوَ الَّذي لا يثبُتُ على حـال، ولا يقَـبلُ الطَّريقَ كلّمـا يُلقَى إليـه فيـريحَ به. وأكثَرُ مـا تَجدُ هذه في أبناء الطَّوائف وطَلَبة المجالس فـاحذرْهُمْ بغاية جُهدِكَ، وكلّ مَن ادّعى حالاً معَ الله ثمَّ ظهرَ منهُ أحدُ خمسة أشياء فهو كذّابٌ أو مَسلوبٌ والعياذُ بالله: إرسالُ الجـوارحِ في معاصي اللهِ، والتّمتُّعُ في طاعة الله، والـطَّمعُ في خلقِ الله ، والوقيعـةُ في أهلِ الله، وعدمُ احترامِ المسلمينَ على الوجْهِ الَّذي أمرَ اللهُ، وقلّما يُختَمُ لهُ بالإسلام.

وشُروطُ الشَّيخِ الّذي يُلقي إليـهِ المُريدُ بنفسِـهِ: عِلمٌ صحيحٌ وذَوقٌ صَحيحٌ وهمّةٌ عاليةٌ وبصيرةٌ نافذةٌ.

ومَنْ فيـه خمسةٌ لا تصلحُ مشيـختُـهُ: الجهلُ بالدِّينِ، وإسـقاطُ حـرمات المسلمينَ، ودخولُ ما لا يَعني، واتّبـاعُ الهوى في كلّ شيءٍ، وسوءُ الخُلُقِ منَ غيرِ مُبالاة.

وآدابُ المُريدِ مع الشَّيخِ والإخـوانِ خَمسـةٌ: اتّباعُ الأمرِ وإنْ ظهرَ خـلافُهُ، واجتنابُ النَّهـيِ وإنْ كانَ فيـه حتفُـهُ، وحفظُ حُرمتـه غائبـاً أوْ حاضراً وحـيّاً ومـيّتـاً، وقيـامٌ بحقـوقـه بحسبِ الإمكانِ بلا تقْـصـيرٍ، وعـزلُ عقله وعلمـه ورياسـته- إلاّ مـا يوافقُ ذلكَ منْ شيـخه- ويـستـيقنُ على ذلكَ بالإنصـافَ والنَّصـيحة وهي. مـعامـلاتُ الإخوانِ إنْ لم يكُنْ شـيخٌ مرشـدٌ، وإن وجَدتَ ناقصاً منَ الشُّـروط الخَمْسة اعتمـدْ فيما كَمُلَ، وعـامِلْ بالإخْوانِ في الباقي. انتهى.

وينبغي لَكَ أيُّها الطالبُ أنْ تطالعَها في كلِّ يوم مرّتين أو مرّة، وإلاّ ففي كلّ جمعة حتّى تنطبعَ معانيها في النَّفسِ ويقعَ تصرّفكَ على مُقتضاها فإنّ فيها غُنيةً عن كثير منَ الكُتب والوَصايا. فقدْ قيلَ إنّما حُرِموا الوُصولَ، مَن تأمّلها عَرَفَ ذلكَ. ثُمَّ لا تزالُ بعدَ ذلكَ تتعاهدُها قصداً للتذكر بها. وفّقَنا اللهُ وإياك لمرضاته ، إنه ولي ذلك والقادر عليه ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوّةَ إلاّ باللهِ العليِّ العظيمِ.

الحمدُ لله ربِّ العالمينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ [وآلِهِ] وسلَّمَ آمينَ.